

العلوم والمعارف في الحضارة الإسلامية

إرشاد القاصد إلى سنة إقاصد

في أنواع العلوم

تأليف

الحكيم المتطيب

ابن الأكفاني

محمد بن إبراهيم بن شاعة الأنصاري

٢١٢٤٨/٥٧٤٩

مراجعة

أحمد حلمي عبد الرحمن

مدير المخطوطات السابق بدار الكتب
وعضو لجنة إحياء التراث الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشتون الإسلامية

تحقيق وتعليق

عبد النعم محمد جعفر

وكيل وزارة الثقافة السابق
ورئيس لجنة إحياء التراث الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشتون الإسلامية

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة: ١١ شارع جواد حسني

ص ب ١٢٠ القاهرة - ت: ٣٩٢٥٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من يعنى بدراسة الحضارة الإسلامية : تاريخها وتراثها العلمى والأدبى والثقافى ، وإلى الشباب الناهض الذى يتوق إلى الوقوف على المكانة الإنسانية الرفيعة التى وصل إليها آباؤهم المسلمون ، وإلى كل من يدافع ويدافع عن الإسلام والعروبة حتى ترتفع راياتها المنصورة دائماً فى يومنا وغدنا ، وإلى العلماء والباحثين الذين يبذلون كل ما يستطيعون من الجهود للنهوض بالعالم الإسلامى بصفة عامة ، وبالعالم العربى بصفة خاصة ، إلى المكانة السامية الكريمة التى وصفها الله تعالى بقوله :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

إلى هؤلاء وأولئك جميعاً أهدى كتاب :

« إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم »

تأليف الفيلسوف المسلم الكبير من أشهر أطباء القرن الثامن الهجرى : « ابن الأکفانى » راجياً أن تكون هذه الموسوعة المختصرة خير معين لهم جميعاً فى دراساتهم وجهادهم لبلوغ مآربهم العلمية السامية .

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

هذا هو ما كنت قد قررت أن افترض به اهداء هذا الانتاج العلمى الرفيع لعلماء المسلمين ولغيرهم من الباحثين الذين يعنون بدراسة تاريخ الحضارة الإنسانية ويعنون بمعرفة مبلغ ما وصلت إليه من ازدهار على أيدي المسلمين ، ولكن شاءت إرادة الله العظيم أن يختار الله إلى جواره

الزميل العزيز الأستاذ « أحمد حلمى عبد الرحمن » (١)

بعد أن انتهى من مراجعة تحقيق هذه الموسوعة المختصرة ، وكان ذلك قبل أن ندفع بها إلى المطبعة .

لقد كان فى نفسى لهذا الزميل الكريم ، المتواضع تواضع العلماء ، معزة خاصة ، فقد كان أحد تلاميذى المقربين ، ثم أصبح أحد زملائى المخلصين الذين حياهم الله بصفاء النفس وطهارة القلب ، والاخلاص فى معاونة العلماء والباحثين ومساعدتهم فى الوصول إلى مفاتيح كنوز الحكمة والمعرفة التى تقتنيها دار الكتب المصرية ، وفى الارشاد إلى ما فى غيرها من مكتبات العالم من الكنوز المخطوطة والمطبوعة ، ولذلك فقد شاءت إرادة الله العزيز العليم أن أهدي عملى وعمله معاً نى تحقيق ومراجعة هذه الموسوعة النفيسة المختصرة إلى روحه الطاهرة وإلى كل من يعنى بالبحث والدراسة فى التراث الإسلامى الذى كان له شأنه الكبير فى النهوض بالحضارة الإنسانية .

عبد المنعم محمد عمر

(١) توفى لرحمة الله فى ١٤/٩/١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان العرب في الجاهلية يعيشون في قبائل متنافرة ، وكانت تسود بين كثير منها العداوة والحروب ، وكانوا أميين يندر أن يكون بينهم قارئ أو كاتب (١) فكانوا متخلفين حضارياً عن جيرانهم من الروم والفرس والأحباش ، وذلك برغم ما كان بينهم وبين تلك الشعوب من علاقات تجارية ، وظل الحال كذلك إلى أن شملهم الله بفضله واستجاب إلى دعوة خليل الله إبراهيم وأبيه إسماعيل : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ (٢) فأرسل سبحانه إليهم محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ويرشدهم إلى المنهج الإسلامي الكريم الذي اختاره الله لمعيشتهم في الدنيا ، وأمرهم باتباعه حتى يعيشوا إخواناً متحابين متعاونين لا يعتدى بعضهم على بعض ، يجير عليهم أديانهم ، وهم يد واحدة على من سواهم . وأنزل الله سبحانه وتعالى على قلب رسوله الكريم ﷺ القرآن المجيد ، فيه هدى ورحمة للمتقين ، يأمرهم فيه بالمعروف وينهاهم فيه عن المنكر ، ويحضهم على طلب العلم والحكمة ، والتأمل في الكون ، ويمدح العلماء ويعظم من شأنهم في كثير من آياته الشريفة مثل قوله سبحانه : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (٣) .

وفي صدر الإسلام والعصر الأموي أقبل الصحابة والتابعون على دراسة القرآن العزيز وما يحويه من العلم والحكمة ، فنشأت على أيديهم تلك العلوم ، وكذلك علوم الحديث الشريف وعلوم السنة النبوية المباركة ، وكلها علوم لازمة لاستكمال معرفة المنهج الإسلامي الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده حيث بينت لهم الحلال والحرام ، وظهرت كذلك في هذه الفترة العلوم التي تساعد على توضيح معاني الألفاظ القرآنية ومعاني غريب الحديث مثل علوم اللغة العربية وفنونها ، وعلم التاريخ والتراجم ، وكان

(١) هذا مجمع عليه تاريخياً .

(٢) البقرة : ١٢٩ .

(٣) المجادلة : ١١ .

الغرض من كل هذه العلوم هو خدمة الدين الإسلامى والمحافظة عليه ، وقد حرص الصحابة والتابعون وتابعوهم على حفظها فى الصدور .

وفى العصر الأموى أيضاً بدأ علماء المسلمين فى دراسة ما خلفته لهم الأمم التى سبقتهم من علوم وآداب وفنون ، ولكنها كانت بداية متأنية جداً ، حتى إذا كان **العصر العباسى الأول** اخذت دراساتهم لها تنشيط بسرعة نتج عنها دراسات عميقة أنتجت عقول واعية ذات بصيرة نافذة ، وقلوب متفتحة لم يشبها شئ من التعصب وأقبلوا يترجمون إلى اللغة العربية تراث تلك الحضارات القديمة الضخم ، وبخاصة ما خلفه الإغريق والرومان والفرس والمصريون والهنود .

وقد نتج عن التقاء علوم الأقدمين وثقافتهم مع العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الأخرى المساعدة لها أن فتحت أمام علماء المسلمين وغيرهم من الشعوب التى خضعت لهم أو اندمجت فيهم آفاقاً واسعة للبحث العلمى والأدبى فى مختلف العلوم والفنون ، وأخذت ثمار تلك الدراسات تظهر للناس فى شكل كتب ومؤلفات كثيرة وبخاصة فى مجال الفلسفة والطب والكيمياء والفلك والعلوم الرياضية والجغرافيا ، وكذلك ازدهرت فى ذلك العصر العلوم الدينية ، وظهر الفقهاء والمفسرون والمحدثون وعلماء اللغة العربية والنحاة والشعراء والمؤرخون ، وازداد إنتاجهم الفكرى وتطور ، فكثرت ميادينه وموضوعاته فى مختلف المجالات ، وقد يسرت صناعة الورق فى عهد هارون الرشيد انتشار الإنتاج الفكرى ووجود نسخ كثيرة من مخطوطاته فى العواصم الإسلامية .

وقد تنوعت المؤلفات فى ذلك العصر من حيث الحجم والمضمون فكانت الكتب المبسطة التى تعنى بالتوسع فى الشرح والعناية بذكر التفاصيل ، كما ظهرت الكتب المتوسطة التى يكون لفظها بازاء معناها ونفعها عام ، إذ أنها لا تنطرق للتفاصيل التى لا يعنى ببحثها إلا كبار العلماء والمتخصصون ، وكانت الكتب التى صنفت فى ذلك العصر فى مختلف العلوم « لا تحصى كثرة ، لكثرة العلوم وتفننها واختلاف أغراض العلماء فى الوضع والتأليف » (١)

واستمر الازدهار فى الإنتاج الفكرى كما وكيفا حتى إذا كان النصف الأول من القرن الرابع الهجرى نهج « الفارابى » فى عالم التأليف باللغة العربية منهاجاً جديداً ، وذلك

(١) ابن الاكفانى : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد .

فى رسالته المشهورة بعنوان : « مقالة فى إحصاء العلوم : كتاب أبى نصر محمد الفارابى فى مراتب العلوم » ، فقد فتح الباب على مصراعيه أمام علماء المسلمين للتأليف فى علم « تقاسيم العلوم وترتيبها » ، وهو علم ابتكره الفارابى^(١) يبين فيه « مراتب العلوم وقيمة كل منها مقارناً بالعلوم الأخرى ، كما يوضح الغرض من كل علم وصلته بغيره من العلوم الأخرى ، ثم قسم الفارابى كل علم تقسيماً يحدد موضوعاته وأجزائه ، ويوضح الصلة بين كل منها وبين باقى الموضوعات أو الأجزاء التى يشتمل عليها هذا العلم .

ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الموسوعة - فوق ذلك - كانت فاتحة لتأليف « الموسوعات العربية المختصرة » التى ترتب المواد فيها وفق التصنيف العلمى فى كل فن أو علم على حدة ، فقد أحاط « الفارابى » فى رسالته هذه بعلوم عصره عدا الطب والموسيقى ، ثم قدمها للناس بعد تلخيص المعلومات الواردة فيها تلخيص الفيلسوف المتمكن ، وألم فى هذا التلخيص بأهم الموضوعات متوخياً دقة التعبير ، ووضوح الأسلوب سواء أكان ذلك عند ذكر علوم العرب ، أم عند بحث علوم العجم .

وقد أعجب علماء المسلمين بهذه « الموسوعة المختصرة المصنفة » أيما إعجاب حيث جاءت كما ذكرنا من قبل - فى عصر ازدهر فيه الإنتاج الفكرى المبسوط والمتوسط ، وكان يتعين على كل من يريد أن يكون أديباً مجيداً ، أو عالماً مرموقاً أن يلم بأكثر ما يستطيع من علوم ومعارف عصره ، وأدرك العلماء والفلاسفة أن لهذا المنهاج الجديد فى التأليف فوائد عظيمة ، فهو ييسر البحث فى جميع فروع المعرفة ، وقد عبر عن ذلك - القاضى صاعد الأندلسى « (المتوفى سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) بقوله فى عبارة فصيحة مختصرة » تم له بعد هذا كتاب شريف فى « إحصاء العلوم » والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتمام به وتقديم النظر فيه «^(٢) .

(١) « الفارابى » هو أحد كبار فلاسفة المسلمين الذين بلغوا القمة فى الإحاطة بأكثر علوم عصره حتى أطلق عليه اسم « المعلم الثانى » أى أنه يلى فى المرتبة العلمية الفيلسوف الإغريقى الكبير « أرسطو » وقد توفى سنة ٣٣٩هـ - ٩٥٠م وقد نشرت « مكتبة النهضة المصرية هذه الرسالة بعنوان : إحصاء العلوم » عدة مرات بتحقيق المرحوم دكتور عثمان أمين .
(٢) انظر مقدمة الطبعة الثانية الموسوعة « إحصاء العلوم » وقد توفى القاضى صاعد الأندلسى سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م .

وقد دفع هذا الإعجاب كبار فلاسفة المسلمين إلى أن يحدوا حذو الفارابي في العناية بتأليف « الموسوعات المختصرة المصنفة » ومنهم من شملت موسوعته الكلام في أكبر عدد ممكن من علوم عصره وفنونه ، ومنهم من اكتفى بالكتابة عن مجموعة اختارها من بين تلك العلوم والمعارف ، وقد ورثنا الكثير من هذه وتلك ، ووصل بعضها في إتقان البحث ودقة الترتيب ووضوح الرأي إلى مكانة سامية تدانى مكانة إحصاء العلوم للفارابي ، وأطلق كل مؤلف على موسوعته عنواناً أو أكثر رغبة منه في تحديد المجال العلمي الذي ألفها فيه ، فقد اختار الفارابي لموسوعته ثلاثة عناوين هي :

(أ) إحصاء العلوم .

(ب) علم مراتب العلوم وتصنيفها .

(ج) علم تقاسيم العلوم .

ومن أشهر « الموسوعات - المختصرة المصنفة » التي أشاد بها كبار العلماء والدارسين :

(١) موسوعة « مفاتيح العلوم » تأليف أبي عهد الله محمد الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٧هـ الموافقة لسنة ٩٩٧م .

(٢) موسوعة « مفتاح العلوم » تأليف سراج الدين أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ الموافقة لسنة ١٢٢٨م .

(٣) إتمام الدراية لقراء النقاية تأليف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ - الموافقة لسنة ١٥٠٥م .

وقد بدأ السيوطي بكتابة موسوعته « النقاية » ثم نقحها وتوسع قليلاً في شرحها وأطلق عليها عنوان : « إتمام الدراية لقراء النقاية » .

(٤) موسوعة : « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم » تأليف « شمس الدين محمد السنجاري أصبلاً ، المصري بلداً ، المعروف باسم ابن الأكناني المتوفى سنة ٧٤٩هـ الموافقة لسنة ١٣٤٨م » وهي الموسوعة التي نحن بصدد التعريف بها .

ومن الإنصاف أن نذكر أن موسوعة : « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم لابن الأكناني » تتقدم في كثير من النواحي على غيرها من الموسوعات المختصرة المصنفة الأخرى ، وسنحاول أن نذكر في إيجاز أهم هذه النواحي :

أولاً : عنى « ابن الأکفانى » بالكلام على الإنتاج الفكرى حتى القرن الثامن الهجرى ، وقد صنف فى موسوعته العلوم والفنون التى صنفها « الفارابى » ثم زاد عليها تصنيف الطب والموسيقى .

ثانياً : استهّل « ابن الأکفانى » موسوعته بمقدمة تعتبر من أحسن ما كتب حتى ذلك العصر عن تطور التربية والتعليم عند المسلمين ، وقد عنى بذكر فضل العلم ، ووظيفة المعلم وواجباته ، وما يجب أن يتحلى به من فضائل ، وعن المنهج الواجب اتباعه ، وما يجب أن يتحلى به الطالب أثناء تحصيل العلم والوسائل التى يستعين بها ، وعن مصنفى الكتب ، وأهمية الاستعانة بالمصنفات المعتمدة .. الخ . وقد أجاد « ابن الأکفانى » فى هذا الشرح حتى أن « الفيروز أبادى »^(١) استعان بهذا البحث فى كتابه الكبير « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز »^(٢) فنقلها كاملة دون أن يذكر أنه استعان بموسوعة « ابن الأکفانى » .

ثالثاً : لا شك أن ابن الأکفانى استفاد من موسوعة الفارابى : « إحصاء العلوم » ، كما استفاد غيره من مؤلفى الموسوعات المختصرة المصنفة ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن « ابن الأکفانى » كان له منهجه الخاص ورأيه فى بيان مراتب العلوم وفى تقاسيمها^(٣) ، وأنه خالف فى ذلك بعض آراء « الفارابى » ، ولذلك فقد ألقنا بهذا التحقيق خرائط بيانية توضح فى عدة لوحات تقاسيم العلوم وبيان مراتبها عند كل من « ابن الأکفانى » و « الفارابى » وكذلك عند « الخوارزمى »^(٤) حتى يستطيع القارئ أن يقف على رأى كل منهم فى تقاسيم العلوم .

ولما كان الغرض من تأليف هذه الموسوعة هو بيان فضل العلم والتعليم والتعلم والمعلم - كما ذكرنا فى بعض الفقرات السابقة ، فقد كان رأى « ابن الأکفانى » أن للتربية والتعليم وسيلتين هما :

-
- (١) « مجد الدين محمد الفيروز أبادى » صاحب التأليف الكبيرة المشهورة . توفى سنة ٨١٧ هـ .
 - (٢) يقع هذا الكتاب فى أربعة مجلدات ، وقد نشرته « لجنة احياء التراث الإسلامى فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » . انظر المجلد الأول ، الطبعة الثانية ص ٤١٠ - ٤٥٥ .
 - (٣) هذا العلم هو ما نطلق عليه الآن : علم التصنيف .
 - (٤) الخوارزمى (توفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) .

(١) الأخذ عن أستاذ ينصح للطالب ويرشده ، وكان هذا هو الرأي السائد قبل عصر « ابن الأکفانی » حتى إن العلماء كانوا لا يقدرّون العلم المكتسب عن طريق الكتب حق قدره .

(٢) كان « ابن الأکفانی » مع ثقته في الأستاذ الناصح - يرى أن الكتاب أصبح وسيلة لا غنى عنها لاكتساب كل أنواع المعرفة ، ولذلك فإنه أطال الكلام في المقدمة الثانية عن الكتب وأنواعها ، وقيمة كل نوع منها ، والشروط الواجب توافرها في الكتاب الجيد ، ومن هنا فقد أوجب على كل من يصل في دراسته إلى كشف جديد أو إلى نظرية نافعة - أوجب عليه أن يثبت ذلك في كتاب ينتفع به العلماء والدارسون لأن ذلك هو إحدى الوسائل اللازمة لتقدم العلوم والمعارف الإنسانية .

وكذلك أوجب على نفسه إدخال تنظيم جديد على منهاجه في كتابة موسوعته لم يسبقه إليه أحد من مؤلفي « الموسوعات المختصرة المصنفة » وهو أن يضيف بعد انتهاء الكلام على كل علم وكل قسم من علم ثلاثة مراجع : الأول كتاب مهسوط ، والثاني كتاب متوسط ، والثالث كتاب مختصر . وبذلك قدم للعلماء والمتتبعين بموسوعته قائمة كبيرة مختارة من بين أحسن المراجع التي أبدعتها قرائح العلماء في مختلف العلوم والفنون حتى عصره .

وخلاصة القول في كتاب « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم » هي أن الفيلسوف الكبير « ابن الأکفانی » أكبر أطباء عصره ، لم يكتف بأن يهدى للأجيال المتعاقبة من العلماء والباحثين « موسوعة مختصرة موجزة » تتيح لطلبة العلم الوقوف على ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في مختلف أنواع العلوم والثقافة في القرن الثامن الهجري ، ولكنه أضاف إلى ذلك ذكر قائمة مختارة من الإنتاج الفكري الإسلامي مع بيان قيمة الكثير منها ، وبذلك يكون قد أسهم مع « ابن النديم » في تقديم القوائم الببليوغرافية التي خلّدت الإنتاج الفكري الإسلامي وأصبح كتاب « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم » هو المكمل للجهود الكبيرة التي بذلها « ابن النديم » عندما أخرج « كتاب الفهرست » في القرن الرابع الهجري .

عبد المنعم محمد عمر

القسم الأول

مباحث التحقيق

المبحث الأول

الحياة السياسية والاجتماعية وأثرها
في تكوين ابن الأكفاني

للبيئة التي يعيش فيها الإنسان أثر كبير في تكوينه من الناحية الثقافية ، وفي توجيهه نحو المنهج الذي يسلكه في حياته . وقد كان الشرق الأوسط في الفترة التاريخية التي يتحدث عنها مسرحاً لحروب طاحنة أشعلها البابا إيربان سنة ١٠٩٥ م بحجة تخليص القبر المقدس من المسلمين . فتوالى موجات الحملات الصليبية على فلسطين وسورياً ومصر ، وامتدت حتى شملت المغرب العربي ، وقد دامت زهاء قرنين ، انتشر بسببها الخراب ، ودمرت كثير من القرى والمدن ، وقتل الآلاف المؤلفين من الشيوخ والنساء والأطفال ، بجانب الذين استشهدوا من المجاهدين في مصر والشام الذين استبسلوا في الدفاع عن أوطانهم وأموالهم وأعراضهم ، وظهر في هذين القرنين أبطال عظام بذلوا النفس والنفيس ، وقادوا المسلمين ، كان من أبرزهم السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قاد البلاد أكثر من عشرين عاماً^(١) والسلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي تحمل أعباء الجهاد حوالي سبعة عشر عاماً وكان له فضل كبير في انتزاع النصر وهزيمة لويس التاسع عندما غزا مصر قبل أن يتولى بيبرس السلطنة ، كما كان له فضل إحراز النصر على الصليبيين طوال حكمه^(٢) ، وكان ذلك قبيل العصر الذي نتناوله بالبحث ، وهو العصر الذي عاش فيه ابن الأكفاني .

وحدث أثناء اشتعال تلك الحروب المدمرة أن داهم المغول البلاد الإسلامية من المشرق بقيادة هولاكو ، واجتاح طوفانهم البلاد الإسلامية التي تعرف الآن باسم أفغانستان ، وإيران ، وخرابوا المدن ، وقتلوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، ثم اجتاحوا العراق ، واستولوا على بغداد ، ودمروا الكثير من معالمها ، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم ، وقتلوا الخليفة العباسي «المستعصم بالله» هو والكثير من رجاله سنة ٦٥٦ - ١٢٥٨ م ، ثم زحفوا إلى الشام ، وأخذوا يدمرون كل ما كان يقابلهم ، واستولوا بسرعة على حلب ودمشق ، وعاثوا في البلاد فساداً ونهباً ، وانتشر الفرع في البلاد الإسلامية حتى قبض الله للمسلمين السلطان « سيف الدين قطز » فهزمهم شر هزيمة في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ، وكان نصراً عزيزاً أنقذ به البلاد السورية ، واضطر المغول إلى التقهقر إلى حدود العراق الغربية ، ولكنهم عادوا يهاجمون الشام المرة تلو المرة ،

(١) من سنة ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ / ١١٧١ - ١١٩٣ م .

(٢) ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م .

فتصدى لهم السلطان الظاهر بيبرس ، وأنزل بهم الهزائم المتوالية وبخاصة فى موقعة أبلستين سنة ٦٧٥هـ - ١٢٧٦م .

وفى العصر الذى عاش فيه «ابن الأكفانى» ورث السلطان المنصور قلاون^(١) أعباء الجهاد لمكافحة هذه الأخطار التى كانت تهدد بغزو مصر والشام من الشرق ومن الغرب وقد نجح نجاحاً كبيراً فى هذا الجهاد حتى وصفه معاصره المؤرخ أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بقوله : « كان السلطان الملك المنصور ملكاً مهيباً حليماً ، قليل سفك الدماء ، كثير العفو ، شجاعاً ، فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب وطرابلس التى لم يجسر أحد من الملوك قبله مثل صلاح الدين وغيره على التعرض لهما لحصانتها ، وكسر جيش التتر على حمص^(٢) وكانوا فى جمع عظيم لم يطرق الشام قبله مثله »^(٣)... وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس فى سنة ٥٠٣هـ فبقيت بأيديهم إلى أوائل سنة ٦٨٨هـ فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة وخمس وثمانين سنة »^(٣) .

ورأى السلطان المنصور قلاون ، أنه بعد هذه الانتصارات لم يصيح للفرنج فى الشام سوى شريط ضيق على ساحل البحر المتوسط كانت أهم مدنه هى بيروت وعكا وصور وصيدا وعشليث ، ولذلك قرر السلطان أن يهادن الصليبيين عسى أن يجنحوا إلى السلام ، ولا يعتدوا على جيرانهم المسلمين ، ولذلك عقد معهم سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م هدنة لمدة عشر سنوات ، واعتقد الناس فى مصر والشام أن ذلك سيؤدى إلى أن يعيشوا فى سلام وأمان ، ولكن حدث أن وصلت فجأة فى هذا العام نفسه بضعة آلاف من متعصبى الصليبيين ، ونزلوا فى عكا ، وأخذوا يعتدون على جيرانهم من المسلمين ، وصاروا ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، ويقتلون الأبرياء ، وحدث أيضاً أن توفى فجأة السلطان « المنصور قلاون » فى نفس العام سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م .

وورث « السلطان الأشرف خليل » الصراع مع الصليبيين الذين خرقوا الهدنة ، كما ورث الصراع ضد كبار أمراء المماليك بعد وفاة « السلطان المنصور قلاون » فهاجم

(١) سنة ٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م .

(٢) سنة ٦٨٠هـ - ١٢٨١م .

(٣) كتاب المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ من ٢٣ - ٢٤ .

« عكا » واستولى عليها عنوة بعد قتال مرير ، فدبّ الفزع فى قلوب باقى الفرنجة وأخلوا بيروت وصور وصيدا وعثليث وغيرها من الشريط الذى كانوا يحتلونه على ساحل البحر المتوسط ، وهكذا « اتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة المحصينة بغير قتال ولا تعب ، وأمر بها فخرت عن آخرها ، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمراً لا يُطمع فيه ولا يرام ، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام ، فلله الحمد والمِنَّة على ذلك » (١) وكان ذلك سنة ٦٩٠هـ - ١٢٩١م .

وعاش « ابن الأكفانى » وسط الفرحة التى عمت بلاد المسلمين ، ولكنها لم تدم طويلاً فقد تأمر كبار أمراء الماليك وتمكنوا من قتل السلطان الأشرف وهو فى رحلة صيد فى أوائل المحرم سنة ٦٩٣هـ ، ولما لم يكن فى وسع أحدهم أن يقهر الآخرين ، ويستولى على الملك ، ويلزمهم بطاعته ، فقد اضطروا حسماً للنزاع المؤقت بينهم إلى الاتفاق على تولية الأمير محمد ابن السلطان قلاون سلطنة مصر والشام ، وكان طفلاً فى التاسعة من عمره ، وكان كل أمير منهم يمتنى نفسه أن يستطيع التخلص منه ، وأن ينصب نفسه سلطاناً فى أول فرصة تتاح له .

وكثرت الدسائس والفتن وازداد التناحر بين كبار أمراء الماليك حتى استطاع أحد الأمراء عزل هذا الغلام ، وتولية نفسه سلطاناً باسم السلطان العادل كتيبغا (٦٩٤هـ - ١٢٩٤م) ، ولم يلبث أن ثار عليه فريق آخر من الأمراء ففر إلى دمشق ، وباع الأمراء المنتصرون سلطاناً آخر باسم السلطان المنصور لاجين (٦٩٦هـ - ١٢٩٦م) وهكذا كانت الفوضى سائدة فى جميع بلاد مصر والشام وكثرت الاضطرابات والفتن والمنازعات بين طوائف الماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانيت ، ويختزن الناس الطعام ، ويستعدون لفترة عصبية يتزعزع فيها الأمن ، وتقل المؤن ، وتضطرب الحياة الاقتصادية » (٢) .

(١) كتاب المختصر فى أخبار البشر . لاهى الفدا عماد الدين إسماعيل ، ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) كتاب : الأيوبيون والماليك فى مصر والشام ، تأليف سعيد عاشور ، ص ٢٨٣ .

وبينما كانت كل طبقات الشعب تعاني من هذه الفوضى المنتشرة في البلاد ، تسامح الناس ، ومن بينهم ابن الاكفاني ، أن المغول انتهزوا هذه الفرصة ، وزحفوا على الشام (٦٩٧هـ - ١٢٩٨م) ، وأنهم هزموا أمراء المماليك الشاميين ، ودخلوا دمشق حيث عاشوا في البلاد فساداً ، وقتلوا الكثيرين ، ونهبوا ، وإزاء هذا الخطر الداهم من الخارج ، وعملاً على إيقاف الفوضى ، لم ير كبار أمراء المماليك بدأً من إعادة السلطان محمد الناصر إلى العرش للمرة الثانية على الرغم من أنه كان ما يزال مراهقاً في الرابعة عشرة من عمره (٦٩٨هـ - ١٢٩٨م) ، وقد استقبل الشعب هذا الاجراء بالابتهاج وإقامة الزينات في طريق عودة هذا السلطان الصغير إلى قلعة صلاح الدين لأن الشعب كان يحب بيت السلطان قلاون .

وخرج الجيش من مصر وعلى رأسه كبار أمراء المماليك ومعهم السلطان محمد الناصر إلى الشام (٦٩٨هـ - ١٢٩٩م) وانتصر المسلمون نصراً عزيزاً بالقرب من دمشق (٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) فعمّ الفرح والابتهاج في مصر والشام ، اعتقد الشعب أن هذا النصر كان ببركة رئاسة السلطان الصغير الذي كان في الثامنة عشرة من عمره (١) ، وعم البشر والسرور بلاد مصر والشام .

وخشى كبار أمراء المماليك عاقبة تعلق الشعب بهذا السلطان الشاب فضيقوا عليه الخناق ، ومنعوه من الاتصال بالجماهير ، وأصبح العوية في أيديهم لا حول له ولا قوة ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً حتى إنه كان لا يستطيع أن يطلب من الطعام ما تشتهيته نفسه ، فضاقت ذرعاً بهذا الحال ، ودبر الحيلة حتى استطاع أن يخرج من مصر ، واحتسب بقلعة « الكرك » وتنازل عن الملك ، وحاول الأمراء إغراءه بالعودة فلم يفلحوا ، ولذلك اتفقوا على تولية أحدهم هو السلطان بيبرس الجاشنكير (٢) (٧٠٨هـ - ١٣٠٨م) ولكن الأمور لم تستقر له ، وشاء القدر أن يجيء فيضان النيل منخفضاً ، فتلفت الزراعة ، وقبّلت المحاصيل ، ونفق الكثير من الماشية والدواب ، وارتفعت الأسعار ، فثار الناس في القاهرة ، وأخذوا يهتفون ضد السلطان بيبرس وأعوانه ، ويطالبون بعودة السلطان الناصر محمد ، كما أن أمراء المماليك بالشام لم يرضوا عن تولية

(١) السلوك للمقريزي ، ج ١ ص ٩٢٨ .

(٢) مطلق عليه أيضاً بيبرس الثاني .

السلطان بيبرس الثانى ، وأخذوا يعلنون ولائهم للسلطان الناصر محمد ، وصار يتجمع لمناصرته أمراء المماليك المصريين ، فزحف إلى مصر ، واسترد الحكم (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واستفاد من التجارب التى مرت به ، وأصبح قادراً على أن يمسك بزمام الحكم ، وفرض كلمته على أمراء المماليك ، وقمع كل من يحاول الفتنة ، فاستقر له الملك ، ودانت له البلاد واحداً وثلاثين عاماً : ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م قضاها فى إصلاح أحوال البلاد ، والنهوض بها ، فأنشأ القناطر ، وشق الترع الجديدة لزيادة الرقعة الزراعية ، ولم يكتف بتكليف بعض الأمراء بتقوية جسور النيل والترع الكبرى لحماية مصر من خطر الفيضانات العالية ، ولكنه أشرف بنفسه على تقوية بعضها ، كما أقام وشجع أمراء المماليك على إقامة المساجد لتكون دوراً للعبادة ومركزاً لنشر التعليم ، وقد أوقفوا عليها الكثير من الأوقاف حتى يكون لها دخل ثابت يساعد على استمرارها فى أداء رسالتها ، وحتى تستطيع أن تستعين بكبار العلماء للتدريس فيها .

لقد عاش ابن الأكفانى فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه الحياة الاقتصادية فى مصر والشام ، وعم فيه الأمن ، وانتشر الرخاء مما أتاح الفرصة لامتداد نفوذ السلطان الناصر محمد إلى الحجاز حيث قام بتنظيم شئون مكة المكرمة والمدينة المنورة وتوفير أسباب الحياة لسكانهما ، وكذلك لمحجج السلطان الناصر محمد فى مد نفوذه على ليبيا وتونس غربى مصر ، كما نجح فى نشر الأمن والسلام فى بلاد النوبة .